ثقافة التحضر في فكر مالك بن نبي

Malek BENNABI's Perspective on the Culture of Civilization

خالد خواني[*1]

[1] **جامعة الشهيد حمّة لخضر بالوادي (الجزائر). khaled-khouani@univ-eloued. dz**

تاريخ الاستلام: 2021/07/01 تاريخ القبول: 2021/11/21 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز موضوع ثقافة التحضر كما تطرق له المفكر الجزائري مالك بن نبي، ;والذي حدّد مبادئ أساسية لجوهر النظرية الثقافية والذي يمكن إيجازه في المركب الرباعي للثقافة الممثل في المبدأ الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي، والصناعة. كما يرى مالك بن نبي أن الإنسان المتحضر هو الشخص القادر على العيش في جماعة، والذي يدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسة لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية.

كلمات مفتاحية: ثقافة، تحضر، ثقافة التحضر، مالك بن نبي

Abstract:

This study aims to shed lights on the concept of civilization from the perspective of the Algerian thinker Malek BENNABI who identified the basic principles of the cultural theory. In fact, he focuses on four axes: the ethical principle, the aesthetic orientation, the practical logic and industry .Moreover, Malek BENNABI believes that a civilized person is the person who is able to live in a group and who is, at the same time, aware of the greatest importance of social networks in the organization of human life, and hence the fulfillment of its historical function.

Keywords: *Civilization, Culture, Culture of Civilization, Malek BENNABI.*

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

عرفت البشرية التحضر منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ولم ترتبط بفكر خاص ومتميّز. تناول العلامة عبد الرحمان ابن خلدون بالدراسة والتحليل إشكالية تطور العمران البشري، هذا العمران الذي ينشأ من خلال تجمع الأفراد وتواصلهم، وكوّنوا مجموعة من القيم كالتعاون والتساند والتعارف، والنظم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية...

تأثر مالك بن نبي بالفكر الخلدوني الذي أعطى صبغة خاصة لتطور العمران البشري (التحضر) انطلاقا من العيش كشخص وليس كفرد أي التعلم كيفية تأسيس شبكة علاقات اجتماعية تخضع لقيم ونظم تُسهل عملية التواصل أو التفاعل الاجتماعي.

حدد مالك بن نبي مبادئ أساسية لنظريته الثقافية التي تؤسس لمجتمع متحضر وفق أطر تربوية تبني الإنسان المتجدد، المتحضِّر والمؤهّل للعودة إلى التاريخ، الذي خرجت منه حضارتنا الإسلامية.

تمتاز البلدان العربية بالخصوصية التاريخية والاجتماعية والدينية عنها في البلدان الأخرى وخاصة الغربية منها، حيث فرض التغير التاريخي والاستقرار الاجتماعي للبلدان العربية نمطا معيشيا يختلف عن الغرب، وبالتالي اكتسبوا ثقافة معينة ونمطا مميزا في هويتهم.

اهتم مالك بن نبي بموضوع الثقافة بداية في كتابه "شروط النهضة" ثم خصص كتاباً حول الثقافة يجمع ويشرح فيه ما توصل إليه من أفكار وتصورات، وفي هذا الصدد جاء كتابه "مشكلة الثقافة" خاصة في طبعته الثانية الذي شرح فيه فكرة الثقافة والتي كانت غريبة في الوسط الثقافي العربي آنذاك (فترة الخمسينيات)، فكان منطق التفكير عند ابن نبي يتحدد على قاعدة التمايز والاستقلال الثقافي، فهو لا يرى في التعريفات المطروحة للثقافة خاصة ما عبر عنها حسب وجهة النظر الغربية ما يدعو إلى الاعتراض، وليس نقصها راجعاً إلى خطأ فيها، وإنما لأن مضمونها كما يقول ابن نبي لا يمكن أن يعطينا مفتاح حل المشكلة في الظروف النفسية والزمنية للمجتمعات العربية والإسلامية، وبالتالي: كيف ينظر مالك بن نبي إلى مفهوم الثقافة؟ كيف تناول موضوع الثقافة، مشكلاتها في ظل الهوية العربية والإسلامية؟، وما هي مبادئها (عناصرها) في ظل فكره الحضاري؟ وكيف اعتبرها أساس تكوين مجتمع متحضر وفق المبادئ التي طرحها؟ وما هي نظرته للمجتمع المتحضر؟.

تكتسي أهمية الدراسة في كون التعريفات والدراسات حول موضوع الثقافة التي تناولها جل المفكرين من منطلقات وفق التصور الغربي المتعالي ذو النزعة المادية مركزين مثلا في موضوع ثقافة التحضر على الأدوات بعيدا عن المنطلقات الدينية والأخلاقية، بينما مالك بن نبي ركز على الفكرة الدينية التي تميز المجتمعات الإسلامية التي تصحح الأخلاق (تهذيب الروح) والأفكار (الثقافة) وتؤسس لعالم الأشياء (بناء الحضارة).

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز ما يلي:

- التطرق لموضوع الثقافة حسب عدد من المفكرين وفق تخصصاتهم، وكيفية تناول مالك بن نبي لموضوع ثقافة التحضر.
- المبادئ الثقافية في ظل فكر مالك بن نبي الحضاري.
- إمكانية الرجوع والاستفادة من الأفكار التي طرحها مالك بن نبي لتحقيق الاستقلال الثقافي وبالتالي السياسي والاقتصادي للبلدان الإسلامية.

2. المفاهيم المرتبطة بالدراسة:

1.2 الثقافة:

يعد مصطلح الثقافة من أكثر المفاهيم شيوعاً واستخداماً، وتعددت تعاريفه حيث تقول الباحثة سامية حسن الساعاتي في كتابها "الثقافة والشخصية – بحث في علم الاجتماع الثقافي" أن تعاريف الثقافة تتنوع على سبعة أقسام، وهي تعاريف وصفية، تعاريف تاريخية، تعاريف معيارية، تعاريف سيكولوجية، تعاريف بنيوية، تعاريف تطورية وتعاريف شمولية (عماد، 2006، ص 28). ولكن لفظ "الثقافة" لم يتخذ معنى محدداً إلا على أيدي الأنثروبولوجيين الذين استبعدوا كثيراً من معاني هذا اللفظ الأخرى كالتهذيب والتثقيف والتربية والزراعة، وأصبحوا يستعملونه كاصطلاح للدلالة على كل ما يصنعه الإنسان أو أوجده لنفسه من مصنوعات يدوية، ونظم اجتماعية سائدة، وأدوات ومعاول، وأسلوب للتعبد وباختصار كل ما صنعه الإنسان أينما وجد. (الساعاتي، 1983، ص 27)

إن التعريف المتداول والمتفق عليه عند غالبية العلماء هو الذي يرى أن الثقافة هي طريقة الحياة في المجتمع، وهذه الثقافة تظهر في فنونهم، وفي نظامهم الاجتماعي، وفي عاداتهم وأعرافهم، وفي دينهم. ولتفكيك هذه العناصر يأتي التعريف **السوسيوأنثروبولوجي** لتايلور وهو أنثوبولوجي انجليزي شهير سنة 1871 على "أنها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعارف، التقنيات، العادات والتقاليد والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون أو أي قدورات أخرى والتي تميز مجتمعا ما عن آخر أو مجموعة بشرية عن أخرى" (Russ, 2004, p 86) . ثم جاء من بعده علماء آخرون بدّلو وعدّلوا وحذفوا وأضافوا الى تعريف تايلور عناصر جديدة. عرّف **رالف لنتون** الأمريكي "الثقافة هي تجسيد لتلك السلوكات المكتسبة والموزعة والتي تنتقل وتتوارث من قبل أعضاء مجتمع ما" (Linton, 1975, p 80). وقد عرف كروبر الأمريكي المعاصر علم الثقافة culturologie بأنه "ذلك العلم الذي يسمح بفهم الظاهرة الاجتماعية "(Gresle, panoff, 1994, p 80).

فالثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية، هي مجمل التراث الإنساني، أو هي أسلوب حياة مجتمع، ومع ذلك فلكل شعب ثقافة، بمعنى أن له أنماطاً معينة من السلوك والتنظيم الداخلي لحياته، والتفكير والمعاملات التي تعارفت عليها الجماعة في نمط حياتها، والتي تتناقلها الأجيال المتعاقبة

عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وعن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة الممارسة لها. (الساعاتي، 1983، ص 27)

استخدم مصطلح الثقافة خاصة عند الأنثروبولوجيين فمثلا أحمد أبوزيد يرى أن التفرقة بين الثقافة والمجتمع تنطوي على كثير من الصعوبات، ويُعرِّف المجتمع بأنه يُشير إلى كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين أفراد المجتمع المحلي، أما الثقافة عنده فإنها تعني كل أنماط السلوك المقنن، وبذلك فإن كلاً منهما هو وجه لشيء واحد.(أبو زيد، 1978، ص 38)

كما يرى أن من خصائص الثقافة في الدراسات الأنثروبولوجية هي خاصية الاستمرار. وهذه الخاصية تابعة بالضرورة -كما يقول أبو زيد نقلاً عن لينتون- من تصور الثقافة على أنها التراث الاجتماعي الذي يرثه أعضاء المجتمع من الأجيال السابقة، فالسمات الثقافية لها قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن. (أبو زيد، 1978، ص 40)

أما في الاتجاهات الوظيفية في الثقافة والتي يمثلها علماء الاجتماع. (ايميل دوركهايم ومارسل موس) حيثُ حاولا الإجابة على الأسئلة الأساسية حول كيفية نشوء الثقافة الإنسانية واعتبر أن الثقافة تصبح ممكنة فقط عندما يتمكَّن الإنسان من التميز بين الأشياء أو تصنيفها.

وأما في النظريات الماركسية فلم ير «ماركس» الثقافة تنشأ وفق نظام التصنيف البدائي المنبثق من الهيكل الاجتماعي، كما يعتبر أن الإنسان عندما يحس بالحرية يبدأ في تحقيق ذاته عبر النشاط الخلاق في إنتاج الأشياء باستعمال خياله، لذلك يرى أن الثقافة تنشأ من الفعالية الإنتاجية للإنسان.

في إحدى الندوات حول الثقافة تناول عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا "جاك بيرك" متدخلاً باللغة العربية فقال بأن مصطلح الثقافة غير موجود في اللغة العربية فبالتالي الترجمة الصحيحة لكلمة "culture" هي "الحضارة" وليس "الثقافة" حسب الدلالة والمعنى في اللغة العربية التي تختلف عنه في اللغة الفرنسية.

2.2. التحضر:

ورد في لسان العرب، لفظ "حضر" من الحضور ضد المغيب، والحضر نقيض البدو. يشتق من كلمة "الحضر" –الحاضر- أي المقيم سواء في المدن أو القرى، أما كلمة "البدو" يشتق منها –البادي- أي المقيم في البادية.(ابن منظور، 1992، ص 203)

ورد عن المنجد أن البدو تشبعوا بقيم الحضر فاكتسبوا الثقافة الحضرية وعليه يقصد بكلمة "الحضر" استقرار الفرد أو الجماعة في مكان ما استقرارا كاملا ومتواصلا، وأمّا البداوة تعني بمعناها الضيق الانتقال من مكان لآخر بقصد المرعى.(حنوش، 1999، ص 221)

تشير إلى أن مفهوم الحضرية هي الحالة أو الطريقة للحياة المعتمدة في ذلك سواء في العمل والعلاقات الاجتماعية والأدوار الاجتماعية للأفراد. في مقابل هذا يشير مفهوم "التحضر" إلى ارتباطه

بتزايد نسبة السكان المقيمين بالمناطق الحضرية، وانتشار أنماط السلوك وأساليب الفكر الحضرية.(عاطف، السيد عبد العاطي، 1986، ص 117)

ينظر جل علماء الاجتماع الحضري على أن ظاهرة التحضر عملية اجتماعية يقوم خلالها الفرد بالهجرة من الريف إلى المدينة، والتكيف والتطبع بأخلاق وعادات وسلوكيات أبناء المدن، وتقبل أسلوب الحياة وأنماط العلاقات الاجتماعية الموجودة فيها والخضوع لقوانين وأنظمة مؤسساتها وتشكيلاتها الاجتماعية والحضارية.(احسان، 1981، ص 80)

3. ثقافة التحضر من منظور مالك بن نبي:

يأتي اهتمام (ابن نبي) بالثقافة وضروراتها في البناء الحضاري لما تشكل من أهمية قصوى لأنها تلخص تجربة المجتمع ووعيه بذاته ومحيطه، وجاء هذا الاهتمام في زمن بدأ الابتعاد التدريجي عن ما هو ثقافي ودوره التاريخي والحضاري، إلى ما هو سياسي كنظرية وممارسة.. وهكذا يمكن القول أن الاهتمام بالثقافة لذاتها، أي لما تعبر عنه وما تمثله في النسق الاجتماعي بقي اهتماما ضعيفاً في العالم العربي واعتبرت الثقافة بشكل عام أقل قيمة في إحداث التغيير الاجتماعي من العوامل السياسية والاقتصادية.

لهذا فإن اهتمام مالك بن نبي بالثقافة بأن أعاد لها الاعتبار ووضح دورها في النهضة ووظيفتها المعرفية والاجتماعية، وهو بهذا لا يعزل الثقافة كأفق وحركة عن حقل الحضارة والعلاقة مع الآخر الحضاري، كما انطلق (بن نبي) في بلورة نظريته الثقافية، من واقع اتصال الثقافة بالحضارة واعتبارها أحد الحقول المهمة لبناء الحضارة.

1.3 مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

ينتقد "بن نبي" مفهوم الثقافة في المدرسة الغربية والمدرسة الاشتراكية، ويحدد رؤيته لمفهوم الثقافة بقوله على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام عملية تركيب المعطيات في كيان واحد.

وانطلاقا من هذا المفهوم للثقافة ووظيفتها المجتمعية يقوم "بن نبي" بربطها بالتاريخ والتربية حتى تشكل الثقافة نسقاً متكاملاً.

ولكي نفهم هذا التعريف الذي طرحه ابن نبي للثقافة، ونمتلك القدرة على تكوين وجهات نظر حوله، نحتاج أولاً إلى تحليل عناصره ومكوناته، حتى يكون واضحاً ومتجلياً، فهو يتكون من العناصر التالية:

أولاً: مجموعة من الصفات الخلقية، يبدأ تعريف الثقافة عند "ابن نبي" بهذا العنصر الأخلاقي، لأنه يعتقد أن أساس كل ثقافة هو بالضرورة تركيب وتأليف لعالم الأشخاص، وهذا التأليف يحدث طبقاً لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفة أخلاقية، والأخلاق والفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة.

ثانياً: القيم الاجتماعية، يعتقد "ابن نبي" أن عالم الأشخاص لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فعّال، إلاّ إذا نُظم وتحوّل إلى تركيب اجتماعي، فالفرد المنعزل حسب رأيه لا يمكن أن يستقبل الثقافة، ولا أن يرسل إشعاعها. وفي المجال الاجتماعي فإن الأفكار والأشياء لا يمكن أن تتحوّل إلى عناصر ثقافية إلاّ إذا تآلفت أجزاؤها وأصبحت تركيباً، فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبداً.

ثالثاً: التأثيرات التي يتعرض لها الفرد منذ ولادته، يرى ابن نبي أن الفرد منذ ولادته يكون غارقاً في عالم من الأفكار والأشياء، التي يعيش معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية، تكوّن إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة ملغزة، لكن سرعان ما تصبح بعض عباراتنا مفهومة لنا ولمعاصرينا، عندما تفسرها لنا ظروف استثنائية تتصل مرة واحدة بعالم الأفكار وعالم الأشياء وعالم العناصر.

رابعاً: العلاقة التي تربط سلوك الفرد بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، حيث يرى "ابن نبي" أن مقاييسنا الذاتية التي تتمثل في قولنا هذا جميل وذاك قبيح، أو هذا خير وذلك شر، هذه المقاييس هي التي تحدّد سلوكنا الاجتماعي في عمومه، كما تحدد موقفنا أمام المشكلات قبل أن تتدخل عقولنا، إنها تحدّد دور العقل ذاته إلى درجة معيّنة، وهي درجة كافية تسمح لنا بتمييز فاعليته الاجتماعية في مجتمع معين. أي أنها تحدّد في الواقع المباني الشخصية في الفرد، كما تحدّد المباني الاجتماعية، أو ما أطلقنا عليه أسلوب الحياة.

هذا التعريف للثقافة ينطلق ويتأسس من طريقة النظر عند "ابن نبي" للثقافة، التي يرى أنها جو من الألوان والأنغام، العادات والتقاليد، الأشكال والأوزان والحركات، التي تطبع على حياة الإنسان اتجاهاً وأسلوباً خاصاً يقوى تصوره، ويلهم عبقريته، ويغذي طاقاته الخلاقة، وأنها الرباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه.

2.3 مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي:

تقوم مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي على تحديد يشمل أساساً الناحيتين الحيوية والتربوية، فالثقافة في مهمتها التاريخية، تقوم بالنسبة للحضارة بوظيفة الدم بالنسبة للكائن الحي، فالدم ينقل الكريات البيضاء والحمراء التي تصون الحيوية والتوازن في الكائن كما تكون جهاز مقاومته الذاتية.

وان مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه، فهو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير، ووحدة

الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه متجهة إلى الهدف نفسه.

فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت فهناك ملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد العربية والإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت والمهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكوّن من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساساً فكرة توجيه الإنسان وإرشاده نحو المأمول.

ومن الحلول التي يراها مالك بن نبي أساسية لبناء إنسان الحضارة، فتتمثل في تنقية ثقافتنا أو فكرنا من الأفكار الميتة (رواسب الماضي) والقاتلة (جراثيم الحاضر)، لأن الثقافة بالنسبة إليه هي نظرية في السلوك وهي الجسر الذي يعبره المجتمع للرقي والتمدن (التحضر). (خلفاوي، 2020، ص 12)، يرى بن نبي وجوب تنقية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما يحتويه من عوامل قتالة، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الداعية للحياة. ولا تتأتى هذه التصفية ولا تبنى ثقافة التحضر إلا بفكر جديد يزاوج بين الروح والمادة يفصل المجتمع عن رواسب الماضي (الأفكار الميتة) ويصله بمقتضيات المستقبل.

كما أن حل مشكلة الإنسان تستوجب عملية التكامل في العناصر الثلاثة الأساسية وهي: توجيه الثقافة، توجيه العمل وتوجيه رأس المال (بن نبي، 2013، ص 113)، لأن عملية التوجيه قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف لتجنب الإسراف في الجهد والوقت والمال.

3.3 مبادئ (عناصر) ثقافة التحضر من منظور مالك بن نبي:

تميّز فكر مالك بن نبي باتخاذه من فكرة الحضارة بؤرة تجمع أفكاره الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بحيث صارت مشروعا فكريا شخّص خلاله بمنهجية علمية داء الأمة الإسلامية، دون الاكتفاء بالوقوف عند أعراضها السطحية كما فعل غيره من المفكّرين. وركّز على المسألة الثقافية واعتبرها جوهر دراسة الواقع الحضاري الإسلامي، وأنها المحرّك الرئيسي لقيام أيّة حضارة إنسانية.

تحديد جوهر النظرية الثقافية عند مالك بن نبي، الذي يمكن إيجازه في المركب الرباعي للثقافة الممثل في المبدأ الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي، والصناعة. إذ اعتبر الأستاذ الميلاد أن هذا المركب استوقفه متسائلاً: كيف توصل مالك بن نبي إلى نظرية الثقافة بهذه العناصر الأربعة، خصوصاً وأن مالك بن نبي لم يشرح في كل مؤلفاته كيف توصل إلى هذه النظرية؟ وما منابعها ومصادرها؟ وكيف تطورت؟ وبعد تأمل وتدقيق مستفيض لمدة من الزمن توصل الأستاذ "زكي الميلاد" إلى نموذج قياس لهذه النظرية بعناصرها الأربعة، وتحدد هذا في مبحث العلة في المنطق والفلسفة؛ إذ إن المناطقة قسموا العلة إلى أربعة أقسام، وهي بنفس هذا الترتيب (العلة الغائية، العلة الصورية،

العلة الفاعلية، والعلة المادية)، هذه العلل الأربعة متماثلة وشديدة التشابه مع تلك العناصر الأربعة، كما أن الأستاذ مالك بن نبي كان جازماً بقوله: «إن هذه العناصر هي العناصر النهائية والتمامية لنظرية الثقافة، وليس هناك عنصر خامس»، وهذا يقرّب العلاقة بتلك العلل الأربع؛ لأنه أيضاً ليس هناك علة خامسة.لذلك وهذا ما يريد أن يصل إليه ابن نبي، نجد أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر للمشكلة في اتجاهين، أو ثلاثة اتجاهات، حتى يتسنى لنا ضم عناصرها النفسية، وعناصرها الاجتماعية، ومن ثم تحديد العلاقة الضرورية بين هذه العناصر جميعاً، وأخيراً لكي نصوغ هذه العلاقة صياغة تربوية وافية، تجعل التعريف قابلاً للتنفيذ.(ابن نبي، 2000، ص 43)

أمّا المبادئ (العناصر) الأربعة للثقافة التي تصنع الإنسان المتحضر، نعرضها بالترتيب حسب أهمية كلّ مبدأ عن الآخر، والتي ركّز عليها "ابن نبي" وفق منظوره لها فهي كالآتي:

1.3.3 المبدأ الأخلاقي: ترتبط الأخلاق في نظر مالك بن نبي بالمجتمع، وفي هذا الصدد يقول: "لسنا هنا نهتمّ بالأخلاق من الزاوية الفلسفية، ولكن من الناحية الاجتماعية، وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقيّة، بل أن نحدّد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية"(ابن نبي، 2000، ص 79). تعتبر الأخلاق عند "مالك بن نبي مكوّن أساسي للروابط بين الأفراد في المجتمع، فالثقافة في نظره لا يمكن أن تكون أسلوب حياة في مجتمع معيّن إلاّ إذا اشتملت على عناصر تقوي الروابط بين أفراد المجتمع.

تقوم شبكة العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع على أساس أخلاقي واختلالها باختلال المبدأ الأخلاقي باعتباره المسؤول عن تنظيم العلاقات بين الأشخاص على أساس ما يتناسب مع المصلحة العامة لمجتمع معيّن، وبالتالي يمكن القول أن الوظيفة الأساسية للمبدأ الأخلاقي هي بناء عالم الأشخاص، والذي بدونه لا يمكننا تصوّر أي وجود لعالم الأشياء وعالم الأفكار.

يعتبر "ابن نبي" المجتمع غير قادر تلقائيا على إنتاج القيم الخلقية، إنما التركيب بين العناصر وتقوية العلاقات إنما يتمّ بحدوث حادث غير عادي كظهور الديانات. (ابن نبي، 2012، ص 48) فالعقيدة الدينية تؤثر على السلوك البشري وتقوم بعملية التوجيه الأخلاقي، وبالتالي هي عنصر مهم في الثقافة (المعتقد) من خلال تأصيل غريزة العيش في جماعة، بحيث يستخدم الإنسان هذه الغريزة ويوظفها بروح خلقية سامية، وهذه الروح تأتينا مع نزول الدّين، ومهمّتها ربط الأفراد بعضهم ببعض مكونين مجتمعا متجانساً.

ويتحدّد مفهوم الفكرة الدينية في فكر مالك بن نبي حين قال: "... من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها، وتوجّهه نحو غايات سامية، فالحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلّا بالعقيدة الدينية وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها"(ابن نبي، 2013، ص 75).

يوجّه الدين الإنسان في كل أعماله لبلوغ هدف سامي يساهم فيه مجموعة من الأفراد الذين يخضعون لسلطة هذه الغاية الذات إلى مستوى القيم التي ينشدها الأفراد في مستقبلهم حيث يكون "هذا المشروع هو المثل الأعلى الذي يحرّك طاقات هؤلاء لتحقيق عمل مشترك، فلما كان الدّين في الكتب السماوية صادر عن معبود غيبي فإنه يتميّز عن كل البشر وما ينتجه فكرهم بالكمال المطلق والكلّي"(صليبا، 1982، ص 572).

فالفكرة الدينية عند "ابن نبي" تتعلّق بكل مشروع يهدف إلى التغيير، بحيث تكمن وظيفتها في التأسيس لكيان الأمة، وتحديد هويتها عن غيرها من الأمم، كما تقوم ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية. وللدّين جانبين في حياة الإنسان هما:

– الجانب الغيبي: الذي يعبّر عن العلاقة بين الإنسان وربّه والتي تظهر من خلال أفعال الأفراد والتي تبرز مدى القوّة الإيمانية ووفقها يتم خلق حركية اجتماعية متناغمة.

– الجانب الاجتماعي: وهو" انعكاس علاقة الإنسان بربّه في المجال الاجتماعي"(السعد، 1997، ص 110) وعلى هذا فالدين (العقيدة) إيمان قلبي يدفع بفيضه حركة العقل واليد اتجاه الآخرين، لتستقيم بمسيرة المجتمع خطىً تتجه إلى الله الواحد الأحد.(مسقاوي، 1988، ص 127)

فالبعد الغيبي في نظر "ابن نبي" هو المسؤول عن بلوغ الحضارة التي بدورها تتجسّد في واقع العلاقات الاجتماعية، والتاريخ الإسلامي مليء بالنماذج الإيمانية التي بلغت ذروة الحضارة الإنسانية في زمن قياسي، كما أن الإيمان كما يرى "ابن نبي" ليس مجرّد مشاعر في الوجدان ، أو تصورات في الذهن لا ترجمة لها في الحياة الواقعية (الدّين ما وقر في القلب وصدّقه العمل). ولتقويم أخلاق المسلم ولإعادة فعالية العقيدة وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي يقول "ابن نبي" إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة"(ابن نبي، 1986، ص 54).

يرى "ابن نبي" أن الدين الإسلامي أرسى مجموعة من المبادئ والقيم لبناء شخصية أتباعه، كما يعتبر أن الحضارة الإسلامية في أوجها بنيت على البعد الروحي أكثر من البعد المادي عكس الحضارة الغربية التي ترجع مقياس كل شيء إلى المادة دون الأخذ بالاعتبار المعايير والمبادئ الأخلاقية. يمثل المبدأ الأخلاقي عند مالك بن نبي دستور المثل العليا والقيم الراقية المستمدّة من جوهر الدّين الإسلامي، حيث يتمّ توجيه الطاقات الاجتماعية نحو الغايات السامية التي تخاطب ضمير كل فرد، ليحوّل إلى طاقة حيّة يخدم بها المجتمع في كل أفعاله وسلوكياته، فالدّين يصبح إلزاماً داخلياً إذا تعلّق بالضمير، وإلزاماً خارجياً حين تطبّق أحكامه.

2.3.3. التوجيه الجمالي: تحتاج الثقافة إلى ذوق جمالي وحسّ فنّي وقدرة على الإبداع والإبتكار، فالذوق هو الذي يبعث في الإنسان "نزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخّيا للكريم من العادات"(ابن نبي،

2013، ص 98). يربط مالك بن نبي بين المبدأ الأخلاقي والعنصر الجمالي فيقول: "فحين يكون المبدأ الأخلاقي ضرورياً للعمل من حيث دوافعه وغاياته يكون العنصر الجمالي لازماً لصورته وفعاليته"(ابن نبي، 1979، ص 146)

فالذوق الجمالي عنصر ثقافي يظهر في كل نشاط يقوم به الفرد ، والعكس "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لابد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره وأعماله ومساعيه"(ابن نبي، 2013، ص 97) ، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح، وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، أو السماجة القبيحة.

فأي حركة تبتغي طريق الحضارة لا بدّ أن تعمل على ترقية دوقها الجمالي كما عملت على تأسيس دستورها الأخلاقي وفق المعادلة التالية التي وضعها مالك بن نبي:مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي= توجّه حضاري

نلاحظ في المعادلة قدّم مالك بن نبي المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي وهذا الترتيب ينظّم هذين العنصرين، وهو الذي يحدّد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخياً، فالثقافة الغربية تأسس نشاطها الاجتماعي على القيم والدّوافع الجمالية التي ورثتها عن الحضارة اليونانية والرمانية، أما الثقافة الإسلامية تأسس نشاطها الاجتماعي على القيم والدّوافع الأخلاقية التي ورثتها من التراث الإسلامي السامي. (ابن نبي، 2013، ص 109) مثال عن ذلك المجتمع الغربي قد انطلق من نقطة معيّنة في ذلك وهي إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهر الجمال، في المقابل كان المجتمع الإسلامي اتخذ اتجاهاً مخالفاً تماماً، إذ هو يهدف إلى إخفاء جمال المرأة في الشارع، فالجانب الجمالي في ملابس النساء المسلمات في الثقافة الإسلامية يأتي في المرتبة الثانية بعد الأخلاق، وبالرغم من أنها تضع الأخلاق في المرتبة الأولى إلا أنها أولت عناية كبيرة للبعد الجمالي في الشخصية الإسلامية فرداً ومجتمعاً وأمة، مع التأكيد على طهارة النفس والجسم والمحيط. فالجمال هو وجه الوطن فالمحافظة عليه يحفظ كرامة واحترام الوطن.

3.3.3. المنطق العملي: يعني به مالك بن نبي "كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه بطريقة يتمكّن الإنسان بها من استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معيّنة"(ابن نبي، 2013، ص 102) ، أي ينظر "ابن نبي" بالمنطق النفعي (البراغماتي) المحكوم بالمبدأ الأخلاقي والذي يفرض أن يكون مصدراً للفعالية وهي أحد الشروط التي تهيّء المجتمع لمواجهة مشكلات التخلّف في كافة القطاعات الحياتية مع تعديل أسلوب الحياة بطريقة تأخذ بالحسبان للوسائل المتوفرة والزمن المحدّد. يعلمنا المنطق العملي كيفية ربط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي.

ومجتمعاتنا الإسلامية أحوج ما تكون إلى هذا المنطق العملي في حياتها، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوماً رغم أن العقيدة الإسلامية جعلت إتقان العمل والتفاني فيه من الإيمان، و"أن القرآن الكريم وضع حلولا للمشكلات الاجتماعية حيث شرّع الزواج والمعاشرة والطلاق والميراث، كما وضع تشريعاً للمسائل الدنيوية كالبيع والشراء والتجارة، فالقرآن يضع في أعماق عقيدتنا الاستعدادات التي تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعدّدة"(ابن نبي، 1971، ص 16-17). وإذا ما أردنا حصراً لهذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، وبين فكرة وتحقيقها فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وأن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها.

يعتبر مالك بن نبي أن العامل النفساني لدى المسلمين محبط صاروا انهزاميين بدون عزيمة لأن هذا المرض غرس فيهم بقصد، ولكي يتحوّل الإيمان والعقيدة إلى حيّز الفعالية في الواقع المعاش، فإنه لا بدّ من أن تدخل ضمن التغيير الداخلي للإنسان المؤثرة على السلوك لأن "أول شيء في هذه الطريق هو تكوين الانعكاسات التي تغيّر سلوك الفرد، وهذا التغيير النفسي هو الذي يسهّل حياة المجتمع، فكل ما يغيّر النفس يغيّر المجتمع"(ابن نبي، 2012، ص 73). فعنصر الإرادة والانتباه في العالم الإسلامي ما زال غائبا لتغييب العقيدة.

4.3.3. الصناعة (الفنون التطبيقية): يقصد مالك بن نبي بالصناعة "كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم"(ابن نبي، 2013، ص 104) ، ليشمل كل الوسائل الفنية التي تكسب الفرد والمجتمع القدرة على تحقيق مهام اجتماعية، ومستلزمات معيشية في إطار فنّي تخصصي والذي يشمل فن الراعي كما يشمل فن العالم على السّواء. (ابن نبي، د.ت، ص 114) فكل نشاط مهني يومي مهمّ في نظر مالك بن نبي مهما كان بسيطاً في نظر العامة ولكنه ذو أهمية قصوى للمجتمع ضاربا مثال بعامل النظافة لو لم ينجز عمله يوما واحدا فقط عاد ضرره على الجميع كله، فهذه المهنة المحتقرة عند البعض رغم أهميتها ودورها في تنظيف الأحياء والشوارع ورغم ذلك لا تحظى بأية رعاية من المسؤولين، فبدلا أن تقام لهم دورات تكوينية عن الوسائل التي يستخدمونها في عملهم من قفازات وبدلات وأحذية خاصة ومواد تحفظهم من الإصابات والجراثيم، وحتى طريقة تصنيف النفايات، وبدلاً من أن يتلقى ممارس هذه المهنة أجرا يوازي أتباعه رغم معاناته من أخطار عمله، نجد أجره الأكثر انخفاضا بين كلّ الأجور، ففي حين رامي تلك القاذورات في الشارع بشكل عشوائي يتقاضى عشرات الأضعاف ما يتقاضاه عامل النظافة.

اقترح مالك بن نبي من أجل النهوض بالصناعة واحترام التخصص، إنشاء مجالس للتوجيه المهني، والإعداد والتربية المهنية لكل المهن في المجتمع بغض النظر عن مستواها ودورها. وإذا كانت الصناعة بهذا المعنى للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة

على كيانه واستمرار نموه. وهذه المبادئ أو العناصر الأربعة تتكامل لكي تشكل نسقاً يبدأ من الفكرة وينتهي بالإنتاج، وينبغي القول في هذا الإطار أن اختلاف مضامين الثقافات يؤدي إلى اختلاف الآثار على المستوى المجتمعي.

4. خاتمة:

إن الطرح الثقافي عند مالك بن نبي في جانبه الفكري يلمس حقيقة جوهرية وهي أن كل مجتمع بحاجة إلى تكوين فهم مستقل وخاص به لطبيعة مشكلته الثقافية، أو فكرته عن الثقافة بصورة عامة، وذلك بحسب مرحلته التاريخية، باعتبار أن المشكلة الثقافية في رؤية ابن نبي لها نوعيتها وطبيعتها في كل مجتمع، بالشكل الذي يمنع استيراد الحلول من مجتمع آخر له مرحلته التاريخية المختلفة. يضع مالك بن نبي أربع أبعاد لبناء وسلامة التركيبة الثقافية للمجتمع المسلم من أجل صناعة نهضته وركوب سفينة التحضر، وهي: المبدأ الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي، الصناعة لبناء الحضارة. تترسخ ثقافة التحضر من منظور مالك بن نبي بالعمل على تحويل قيمنا الروحية إلى قيم اجتماعية.

يركز مالك بن نبي على النتيجة، بالتخطيط والعمل وفق مبدأ التكامل بين عالم الأفكار (الثقافة) وعالم الأشياء (الأدوات)، لأن مالك بن نبي لا ينظر للأدوات معتبرا إياها صانعة للحضارة، ولكن يركز على كيفية التعامل مع هذه الأدوات.

ينظر مالك بن نبي للإنسان في فكره وثقافته وسلوكه على أنه هو البؤرة التي تتركّز فيها متطلبات الحضارة ، فالتحضر من منظور مالك بن نبي هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، وأن يدرك شبكة العلاقات الاجتماعية (القدرة على التواصل مع غيره أو الانتقال من الإنسان الفرد إلى الإنسان الشخص) في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية.

لا يتحقق التحضر أو يستمر إلا بتوفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية (على أساس التعادل بين الروح والمادة، بين الكم والكيف) التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه.

يكتسب إنسان الحضارة قيمته الحقيقية من وجوده في ظل علاقاته مع أفراد مجتمعه، والسير في طريق واحد توحدهم الشرارة الروحية (الفكرة الدينية) أو وحدة المبدأ، أي أن الفكرة الدينية هي التي تكسب إنسان الحضارة معنى الجماعة وبالتالي استمرارية التحضر، فالعقل وحده ليس له القدرة على التحكم في الغرائز بقدر ما للروح من قوة، فإذا ضعفت سلطة الروح (الفكرة الدينية) تتحرر الغرائز شيئا فشيئا إلى أن تتغلب غالباً على العقل فتسود الفردية (غياب ثقافة روح الجماعة) فتتحلل العلاقات الاجتماعية، فيرى مالك بن نبي أن ضمور المبدأ وعدم صفائه يشوش على طبيعة العلاقات

بين الأفراد فتنتشر الأنانية أو الفردية لغياب التطابق بين الفكر والسلوك وبين المبدأ والواقع مما يستدعي أفول إنسان الحضارة.

5. المراجع:

- أبو زيد، أحمد، (1978)، محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، بيروت، دار النهضة العربية.
- ابن منظور، (1992)، لسان العرب، ج2، ط1، بيروت، دار ناشر.
- ابن نبي، مالك، (2000)، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (2012)، ميلاد مجتمع، ط9، دمشق، دار الفكر.
- ابن، نبي مالك، (2013)، شروط النهضة، تر: مسقاوي، كامل عمر، ط1، دمشق، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1986)، وجهة العالم الإسلامي، ط1. دمشق، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1979)، تأمّلات، ط1، دمشق، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1971)، حوار مع مالك بن نبي، مجلة الشبان المسلمين، العدد 161، ص 16-17.
- ابن نبي، مالك، (1991)، آفاق جزائرية، تر: الشريف الطيب، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية.
- احسان،محمد الحسن، (1981)، التصنيع وتغير المجتمع، بغداد، دار الرشيد للنشر.
- حنوش، زكي، (1999)، أسباب ونتائج الهجرة السكانية بين الريف والحضر في الوطن العربي: المشكلة والحل، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 28، العدد 1، ص. ص 221-264.
- مسقاوي، كامل عمر، (1988)، وحدة الحضارة، ط1، دمشق، دار الفكر.
- الساعاتي، حسن سامية، (1983)، الثقافة والشخصية – بحث في علم الاجتماع الثقافي، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- السّعد، خالد نورة، (1997)، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، جدّة، الدار السعودية للنشر.
- عاطف غيث، والسيد، عبد العاطي السيد، (1986)، المجتمع الحضري، القاهرة، دار المعرفة الجامعية.
- عماد، عبد الغني، (2006)، سوسيولوجيا الثقافة – المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
- صليبا، جميل، (1982)، المعجم الفلسفي، ج1، ط3، بيروت، دار الفكر اللبناني.
- خلفاوي عزيزة، (2020)، إنسان الحضارة ومشكلة الأفكار في المجتمعات المسلمة من منظور مالك بن نبي، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة 2: الجزائر المجلد 24، العدد 51، ص. ص 273- 287.
- Gresle, francois & Panoff michel ; (1994), Dictionnaire des sciences humaines, Paris , Nathan .
- Linton, Ralphe , (1975), Le fondement culturel de la personnalité , Paris, Dunod .
- Russ , Jacqueline , (2004), Dictionnaire de philosophie, Bordas .